جدليّةُ البُخلِ والنَّفَج
قراءة بينيّة في نادرة للجاحظ

أ.د.أحمد محمّد ويس كلية الآداب جامعة البحرين

الملخص

تَسعى هذه الدراسة إلى توضيحِ ما قد يكون بين البُخلِ والنَّفَجِ من علاقة كان الجاحظُ تَعَرَّضَ لها بالذكرِ عدّةَ مرّاتٍ في كتابِ "البخلاء"، وذلك بتسميتها باسمها حينًا أو بعَرضِ صورتها من دون تسميتِها حينًا آخر، وقد اخترنا حكايةً تُمثِّلُ البخيلَ النَّفّاجَ في واحدة من أجلَى صورِه، واستندنا في تحليلِ الحكايةِ إلى بعض مُعطَياتِ البلاغة والنحو والحِجاج وعلمِ السردِ وعلمِ الأسلوبِ وتحليلِ الخطابِ وغيرِها وهي تتضافرُ فيما بينها في محاولةِ استكشافِ كيفية بناءِ النصِّ وتبيانِ خصائصِه وعلائقِه وجمالياتِ التعبير فيه.

الكلمات المفتاحية: النادرة، الدراسة البينية، البخلاء، النفج، الجاحظ.

Abstract

This study aims to clarify the relationship between miserliness and bragging that Al-Jahiz had made clear several times in the book "Al-Bukhala", by naming her by her name at times or by displaying her image without naming it at other times. We have chosen an anecdote that represents the lamentable miser in one for his images, and we based on the analysis of the story on some data of rhetoric, grammar, argumentation, narration science, stylistics, discourse analysis, and others, and they cooperate with each other in an attempt to explore how the text is constructed and the characteristics of its expression, relationships and aesthetics in it.

نصُّ النادرة

"قال ابنُ حسّان: كان عندنا رجلٌ مُقِلٌّ، وكان له أخٌ مُكثِرٌ، وكان مُفرطَ البخلِ، شديدَ النَّفَجِ. فقال له يومًا أخوه: "ويحك! أنا فقيرٌ مُعِيلٌ، وأنت غَنِيٌّ خفيفُ الظَهر، لا تُعِينُني على الزمان، ولا تُواسيني ببعضِ مالِك، ولا تتفرَّج لي عن شيء! واللهِ ما رأيتُ قطُّ

ولا سمعتُ بأبخلَ منك"! قال: "ويحك! ليس الأمرُ كما تظنُّ، ولا المالُ كما تحسَبُ، ولا أنا كما تقول في البخل ولا في اليسر. واللهِ لو ملكتُ ألفَ ألفِ درهم لوهبتُ لك منها خمسَ مائة ألف درهم. يا هؤلاء.. فَرَجَلٌ يَهَبُ ضربةً واحدةً خمسَ مائةِ ألفِ درهمٍ يُقال له: بخيل!"[1]

التحليل

ربما بَدَت هذه النادرةُ للقارئ المُعاصِر أشبهَ بجنس "القصّة القصيرة جدًّا" من حيث قِصَرُها وبساطةُ موضوعِها وطرافتُها.. وإنّ أوّلَ ما يَقعُ البصرُ منها راويها أو ساردُها "ابنُ حسّان"؛ ويبدو أنه هو نفسُه محمّدُ بنُ حسّان الأسود الذي وردَ ذِكرُه في كتاب البخلاء قبل هذه النادرة وهو يَروي للجاحظِ قصّةً أخرى[2]، وأيًّا ما يكن من أمره فإنه راوٍ لا نعرِفُ شيئًا عنه، بيد أنّ ذِكْرَ الجاحظِ له مرتين يَشِي بأنّه يَعرفُه أو يَعرِفُ شيئًا عنه، بدليلِ تعيينِه بالاسم أو بالوصف "ابن حسّان"، وربّما لو لم يكن يَعرِفُه لعبَّرَ عنه بصيغةٍ أخرى. والجاحظُ يَجري في نادرته هذه على غالبِ عادتِه من إسنادِ القصّةِ إلى راوٍ مّا. وابنُ حسّان هنا يُمثّل "الراوي العليمَ" بدلالة استعمالِه الظرفَ والضميرَ "نا" في قولِه "عندنا"، وبدلالة معرفته بشخصيّتَي القصّةِ وببعضِ صفاتِهما وبما جرى بينهما حتّى لكأنَّ القصّةَ حدَثت على مرأًى منه ومَسمَع، وكان هو في موضعٍ قريب من المكانِ الذي التقت فيه شخصيّتاها، وهو مكان لم تُحدِّده لنا الحكايةُ التي أمامَنا، وإن كنّا نستطيعُ أن نَستشفَّ من خاتمتها أنه كان مكانًا عامًّا مَرئيًّا مفتوحًا غيرَ محجوبٍ عن الأنظار في حيٍّ ما من الأحياءِ أو في سُوقٍ من الأسواقِ في البصرةِ أو في بغداد.

والقصّةُ تحاولُ أن تقدِّمَ لنا صورةً من علاقة بين أخَوين:

وُصِفَ الأوّلُ منهما بأنه: "رجلٌ مُقلّ". والقلَّةُ مرتبةٌ من مراتبِ الفقر.

ووُصِفُ الآخرُ بصفات ثلاث هي على التوالي: "مُكثِر" و"مُفرِط في البخل" و"شديدُ النفج".

---

1 البخلاء، تح : طه الحاجري، ط4 دار المعارف بمصر 1971، ص195

2 انظر: البخلاء، ص 120

وما يَجمَع بين الشخصين هي أُخوّةُ نَسَبٍ، بدلالةِ استعمالِه كلمتَي "أخ" و"أخُوه". وبديهيٌّ أنّ للأُخُوّة حُقوقًا وواجباتٍ تتمثّل في التعاطفِ والتعاضدِ والتكافُل، وهذا هو ما يُخيَّل للمتلقّي لأول وهلةٍ وضمن ما يُسمَّى "أفقَ التوقُّع" وهو يَسمَعُ أو يَقرأ عبارةَ الراوي من قبلِ أن تَكتمِلَ:

"كان عندنا رجلٌ مُقِلٌّ، وكان له أخٌ مُكثِر"

فمع ما في هذا الوصفِ من مفارقةٍ، فقد يُخَيَّلُ للمُتلقّي رغمَ ذلك وعند هذا المَوضِعِ من الحكاية أنّ هذا الرجلَ المُقلَّ مَحظوظٌ برغم إقلاله؛ لأنّ "له أخًا مُكثرًا" نتوقّع أنه لا يَرضَى بأن يَبقَى أخوه مُقلًّا في حين هو مُكثرٌ، ونتوقّع أن يُقدِّم له شيئًا يَستُرُ به حالَه، فإنّ هذا هو ما جرى به العُرف الاجتماعيّ وحثّت عليه تعاليمُ الدين. وههنا يمكن أن نستحضِرَ بيتَ شعرٍ لحسّان بن ثابت يمدح فيه قومًا فيقولُ فيهم:

المُلحِقِينَ فقيرَهُم بِغَنِيِّهم والمُشفِقين على اليتيمِ المُرْمِلِ[3]

والحقُّ أنه ليس ثمةَ مَن هو أجدرُ من الأخِ الغنيِّ بأن يُلحِقَ أخاه الفقيرَ به فلا يَعُودُ فقيرًا..؟!..

كذلك فإنّ الوصفَ بالقلَّةِ والكثرةِ في "مُقلّ" و"مُكثر" يَستدعي وصفَ زهيرٍ لقومٍ مَدَحَهم بقولـه:

على مُكثِريهم حقُّ مَن يَعتريهِمُ وعندَ المُقلِّينَ السَّماحةُ والبَذْلُ[4]

ورغم أن بيتَ زهير هذا في المدح رأى فيه الناقدُ ابنُ شرفٍ القيروانيّ (ت 460 هـ) ذمًّا للمُكثرين؛ فمن وُجهةِ نظرِ ابنِ شرف أنه: "لو كان مُكثرُوهم كُرماءَ لبذلُوا لمُقلِّيهم الأموالَ، حتى يَستوُوا في الحالِ، ويُشبِهُوا في الكَرَمِ والحال" على نحو ما قال حسّانُ في البيتِ الآنفِ ذكرُه. وكما قال غيره في مَدحِ قوم آخرين:

الخالِطِينَ فقيرَهُم بِغَنِيِّهم حتى يعُودَ فقيرُهم كالكافي[5]

---

3 ابن شرف القيرواني: رسائل الانتقاد، تح: حسن حسني عبد الوهاب، ط دار الكتاب الجديد بيروت 1983، ص50

4 ابن شرف القيرواني: رسائل الانتقاد، ص50

5 ابن شرف القيرواني: رسائل الانتقاد، ص50

وكما قالت الخِرْنِقُ بنتُ بدر:

الخالِطينَ لُجَينَهم بِنُضارهم وذوي الغِنَى منهم بذي الفَقْرِ[6]

بيد أنّ الوصفَ بهذه المثاليّة على هذا النحو الذي يَعرضه الشعرُ ويذكره ابن شرف فيه قدْرٌ من المُبالَغةِ والتزيُّدِ؛ وهو لا يتحقّق ولم يتحقّق في الواقع إلا نادرًا جدًّا، لأنّ الغالبَ على النفوسِ هو الشحُّ، وإن كان بعضُ الشحّ أهونَ من بعضٍ؛ وذلك بأنَّ من الشُّحِّ ما يبدو "قياسيًّا" بلَغَ الأوجَ كما هو ظاهرٌ في حكاية ابن حسّان؛ فإنَّ أفقَ التوقُّعِ الذي تحدَّثنا عنه آنفًا سُرعانَ ما تلاشى بورودِ الصفةِ الأخرى:

"وكان مُفرِطَ البخل"

فههنا لابدّ أن ينخفضَ سقفُ التوقُّعِ؛ إذ ما الذي يُمكِنُ أن يُقدِّمَه "مُفرِطُ البُخلِ" هذا لأدنى الأقربين إليه..؟!.. وجوابُ هذا هو بالسلبِ طبعًا. بيد أنّ الصفة الثالثة:

"شديدَ النَّفَجِ"[7]

حين تأتي تُحدِثُ في أُفُقِ انتظارِ المتلقّي نوعًا من التوتّر والتذبذب، وتَستثيرُ لديه سؤالًا مَشُوبًا ببعضِ الاستغرابِ من اجتماع شدِّة النفج مع فَرْطِ البخل. وقد يَظُنُّ المرءُ لأولّ وهلة أنّ شدّة النَّفَج ربّما تكونُ دافعًا نفسيًّا لمُفرِطِ البخلِ هذا لأن يتخلّى قليلًا عن بعضِ بخلِه سعيًا منه مثلًا إلى كسْبٍ معنويّ لا يَتحقّقُ إلا بذلك فيقال عنه: "كريم"؛ فإنّ النّفّاجَ يُحِبُّ في العادةِ هذا ويَسعى إليه؛ لأنه قد وطّن نفسه عليه. وقد يُؤكِّد هذا ما نجدُه في كتاب "البخلاء" من قولٍ يَستنكر فيه أحدُ أشهرِ أعلامِ البخلاء – واسمُه الكِنديّ – على من يُسمِّي "النَّفَجَ أريحيّةً"[8]؛ فلو لم يكُن مُمكِنًا للنَّفَجِ أن يكونَ في بعضِ الأحايينِ دافعًا للجُود والتبذير لمَا وَقَعَ استنكارُ الكنديّ له..

---

6 ابن شرف القيرواني: رسائل الانتقاد، ص51 واللجين هو الفضة، والنضار هو الخالصُ من كلِّ شيء، وهو الذهب أيضا، وهو المرادُ به هنا.

7 النَّفَجُ: فخرُ الإنسانِ بما ليس عنده ولا فيه ، والنَّفَّاجُ: المُتكبِّر. المعجم الوسيط، ط 4 مكتبة الشروق الدولية القاهرة 2004، مادة (نفج).

8 البخلاء، ص91

وأيًّا ما يكن الأمرُ فلعلَّ أكثرَ الفُقراءِ لا يَهُمّهم في شأنِ (المُعطِي) أكان جوادًا حقًّا أم كان نفّاجًا مُرائيًا، وما يَهمُّهُم هو العطاءُ في ذاته؛ بوصفه حقًّا (أو مَطمَحًا أو مطمعًا) لهم، وأمّا مَن يَمنُن أو يُرائي فإثمُه على نفسه.

وبرغم ذلك فإنّ الناسَ عامّةً متفاوتون فيما بينَهم في طرائقِ العطاءِ والأخذ. وبالجملة فإنّ أكثرَ الناسِ هم أقربُ إلى الأثَرَةِ والتقصير والإهمالِ منهم إلى أداءِ الحقوقِ والواجبات، ولكنّ البخلاءَ من بينهم يمتازون في أنهم مَهَرةٌ في اختلاقِ أسبابِ الصدِّ والمنع، يُحاججون بها وهو ما يظهر بجلاءٍ في هذه الحكاية.

وإذا تأمّلنا قليلًا فيما يمكن أن يكون وراءَ هذه القصّة من دوافعَ نفسيّة فسنجد أنّ واحدًا منها يكمُن في ذلك الإحساسِ المريرِ لدى الأخ الفقير بوطأة الفقر، ولذا رأينا الراوي اختار أن يَبتدئ بذكره أوّلًا مُقدِّمًا إيّاه على أخيه البخيل، مع أنّ الحكايةَ تُسرَدُ في سياقِ الحديثِ عن البخلاء. وكان يُمكِنُ أن تُبدَأَ الحكايةُ بذِكْرِ الأخِ البخيلِ بوصفه الشخصيّةَ الرئيسيّةَ والبطلَ (اللابطل) في قصّةِ البخلِ هذه، ولكنّ الراوي ربّما أراد أن يَستَدِرَّ شيئًا من تعاطفِ المُتلقّي فبدأ بالأخِ الفقير. وربّما أراد بهذا التقديمِ أيضًا أن يُظهِرَ عُمقَ المُفارقةِ بين حالَيِ الأخَوين: فالأولُ برغمِ أنّه فقيرٌ ومُقِلٌّ عَبَّرت عنه الحكايةُ بأنّه "رجُلٌ"، وربّما كان مُستبعَدًا أن يُوصَفَ البخيلُ بذلك فيما لو قُدِّم ذكرُه؛ فلا يبدو مناسبًا أن يُقالَ مثلًا: "كان عندنا رجلٌ بخيل"؛ إذ لا تناغُمَ بين وصفَي "الرجولة" و"البخل"، وهكذا جرى تأخيرُه وقُدِّم على أنّه أخٌ له. وإذا كان للقرابة حقوقٌ وواجباتٌ فإنّها تتأكّد وتزيد حين تكون من جهةِ الأخوّة.

والحكايةُ تُظهِرُ الأخَ الفقيرَ أو "المُقلَّ" وكأنّما فَقَدَ أيَّ أملَ له في أخيه المُكثِر الغنيّ، فقرَّرَ أن يُكاشِفَه ببخله وجهًا لوجه ومن دون مواربةٍ أو تورية، ولعلّه كان مدفوعًا إلى ذلك بجملةِ دوافعَ، منها أنّ أخاه المُكثرَ قد جمعَ إلى بُخله المُفرِطِ نَفجًا شديدًا، وربّما كان يمكن التغاضي عن النفَجِ لو كان له تأثيرٌ على صعيدِ النفْعِ الماديّ؛ أي لو أنّ نفجَه كان دافعًا له إلى بعضِ العطاءِ وذلك بأن يُعطيَ ويتنفَّجَ مثلًا، فأمّا أن يكون "النفجُ" مصحوبًا بالبُخلِ الشديد فهذا في الحقّ ممّا يزيد من قبحِ صورةِ الأخِ المُكثِر. ولعلّ هذا

هو ما حرّك الفقيرَ تجاهَه وحفّزه كي يَخرُجَ عن صمته ويَذكِّرَ أخاه بحقيقته ويفضَحَه أمامَ نفسه، عسى أن يُحرِّك ذلك فيه أثارةً من حَمِيّة، إن كان ثمّةَ في الأصلِ حمِيَّة:

"فقال له يومًا أخوه: ويحَك! أنا فقيرٌ مُعِيلٌ، وأنت غنيٌّ خفيفُ الظهر، لا تُعينني على الزمان، ولا تُواسيني ببعضِ مالِك، ولا تتفرَّج لي عن شيء! والله ما رأيتُ قطُّ ولا سمعتُ بأبخلَ منك!".

وأوّل ما نَلحظُه في هذا الخطاب أنه خطابٌ عاتِبٌ بل ساخِط؛ يفتتحه الأخ الفقير باستعمال لفظة "ويحك" وهي هنا توطئةٌ لِمَا بعدَها. وصحيحٌ أنّ الأصلَ فيها أنَّها للترحُّم والتوجُّع.. ولكنّها قد تأتي أيضًا في معنى "ويل"[9] فتحمِلُ معنى التوبيخِ واللومِ والزجر.. ولا تُقال إلا لِمُقصِّر ليتلافى تقصيرَه، وقد يكون فيها شيءٌ من استدرارِ عطْفٍ انعدم على من هو جدير به وهو "الأخ".

ولأنّ المَقامَ مقامُ حديثٍ عن النفس فقد استَعملَ الفقيرُ ضميرَ المتكلّم "أنا" في قوله: "أنا فقيرٌ مُعِيل" في حين استعمل ضميرَ المخاطَب في حديثه عن أخيه "وأنتَ غنيّ خفيفُ الظهر". وربّما لم يَشأ بهذا الاستعمال أن يُخبِرَ عن نفسِه بقَدْرِ ما أراد أن يَصِفَ حالَه وصفًا ينطوي على شكوى وتألّم؛ فمقتضى الخبر هنا طلبيٌّ يُمكن أن نُقدِّرَه بعبارة "ساعِدني" أو "أعنِّي" أو "واسِنِي"، وليس سَهلًا على الحُرِّ أن يَشكوَ حاجتَه إلى أحد حتى إلى أقرب الناسِ إليه؛ لِما في الشكوى من ضَعفٍ قد يُفضي إلى ذُلّ، ولكنّ الفقيرَ هنا شكا فقرَه ولام أخاه الغنيَّ على امتناعه عن مساعدته، وهذا يعني أنّه تخلّى عن جانبٍ من عِزَّته وكرامته، وقد اضطرَه إلى ذلك أخوه الغنيُّ الذي كان عليه ألّا يَنتظرَ أخاه الفقيرَ أن يأتيَه شاكيًا؛ بل أن يبادرَ فيَذهبَ هو إليه بالعَونِ، على نحو ما قال عوفُ بن محلّمِ:

وإنّي لَيأتِيني الغِنَى غيرَ ضارِعٍ فأدنُو به من صاحِبِي ومُجاوِري[10]

---

9 المعجم الوسيط، مادة (ويح)، ص 1061

10 شعر عوف بن محلم الخزاعي، جمعه رشدي علي حسن ضمن كتاب: شعراء عباسيون، دار يافا عمّان 2010، ص125

لكنَّ الأخَ الغنيّ في قصة البخل التي نحلِّلها لمّا لم يفعل هذا راحَ أخوه الفقيرُ حينئذٍ يُذكِّرُه بحاله التي هو عليها:

"وأنتَ غنيٌّ خفيفُ الظهر"

ليُظهِر من خلال هذا مُفارقةً مُزدَوَجةً بين ما هو عليه حالُه من الفقر ومسؤوليّة العيال وبين ما هو عليه حالُ أخيه من الغِنَى وعدمِ وجودِ همٍّ للعيال؛ مفارقةٌ يُحِسُّ بها الفقيرُ ويَتجاهلُها الغَنيُّ. وإذ يشيرُ الفقيرُ إلى أمرِ العِيالِ فلكَي يُسوِّغَ لنفسه فيما يبدو عَتبَه على أخيه، بل ولومَه إيّاه أن لَم يُساعده.. ولعلّه لو لم يكن ذا عيال ما عَتَبَ أصلًا.. بل كان صَبَرَ واحتمل، وحينئذ فلعلّ من الأيسرِ له أن يتدبّرَ أمرَ نفسِه على نحو ما. ولكنّ ثِقَلَ همّ العِيالِ وضِيقَ ذاتِ اليد ومكابدةَ الحاجةِ كلُّ ذلك قد يدفعُ المَرءَ إلى فِعْلِ أشياءَ لا يفعلُها العَزَبُ، وقديمًا عبَّرَ عُروةُ بنُ الوردِ عن أثرِ اجتماعِ العيال والفقرِ في حياة الرجل الحرّ فقال:

ومَن يَكُ مِثْلِي ذا عِيالٍ ومُقْتِرًا   مِن المالِ يَطْرَحْ نَفْسَهُ كلَّ مَطْرَحِ
لِيَبْلُغَ عُذْرًا أَو يُصِيبَ رَغِيبةً   ومُبْلِغُ نَفْسٍ عُذْرَها مِثْلُ مُنْجِحِ[11]

وقد ورَدَ في الحديث النبويّ أنّ "الأولادَ مَبْخَلَة مَجْبَنَةٌ"[12]؛ أي أنّ الوالدَ لِشدّةِ تعلّقه بأولاده قد يَجبُن؛ لأنّه يَخشى أن يفارقَهم؛ فلا يكون لهم من بَعدِه مَن يرعاهم، كما أنّه قد يَبخَلُ؛ لأنّه يريدُ أن يُوفّرَ لهم، ويذَرَ لهم من بعدِه شيئًا يُغنِيهم، وبذا "يؤمّن لهم مستقبلهم" كما يقال في تعبير دارج للناس في عصرنا الحاضر.

ولكنّ حُجّةً كهذه لا تنطبقُ على الأخِ البخيل؛ لأنّ الحكاية قدَّمته غنيًّا "خفيفَ الظهر"[13]، كنايةً عن عَدَمِ وجودِ أولادٍ لديه يتحمّل عِبءَ مَعاشِهم وتدبيرَ شؤونِهم.. وعدمُ الأولاد يَشِي بأنَّ البخيلَ إمّا أنّه متزوّج ولم يُوهَب الولَدَ أو أنّه غيرُ متزوّج أصلًا. واختيارُ

11 ديوانه، ط دار صادر بيروت ، ص 23

12 رواه أحمد وابن ماجة والطبراني والبيهقي وصحّحه الحاكم.

13 يروي الجاحظ عن إبراهيم بن سيّار أنه حكى عن جاره المروزي قوله له: "... وإيّاك أن تُعوِّدَ نفسَكَ هذه العادة في أيّام **خفّة ظهرك**؛ فإنك لا تدري متى يأتيك العيال". البخلاء، ص28

عدمِ الزواج صفة ربّما تكون اجتمعت في غيرِ ما واحدٍ من بخلاء الجاحظ كمحفوظ النقاش والشيخُ الخراسانيّ فيما نقدِّر، وممّا يرويه الجاحظ قولُهم: "قِلَّةُ العيالِ أحدُ اليسارَين"[14]، وهذا قد يفسِّر اختيار بعض البخلاء عدم الزواج أو التقليل من العيال. وما دام أنه "خفيفُ الظهر" فقد كان متوقّعًا أن يَحمِلَ عن أخيه جزءًا من همِّ عيالِه؛ أن يتّخذَ منهم أولادًا له يُنفِقُ عليهم ويكسُوهم ويحنو عليهم بوصفه عمَّهم والعمُّ صنو الأب.. وكان متوقّعًا أن يَنهَضَ لحلِّ مشكلةِ أخيه وأن تحرِّكَه عبارةُ:

"أنا فقيرٌ مُعيل"

[مقدمة + مشكلة]

وأن تنبِّهَه العبارةُ الأخرى المقابِلةُ وأن يعمَلَ بمقتضاها لأنَّ قولَه:

"وأنت غنيّ خفيفُ الظهر"

هو [العلاج والحلّ]

عرضٌ من الفقير لابدَّ أن نُصدِّقَه؛ لأنّه يَتوافقُ ووصفَ الراوي ابنِ حسّان للأخوين في مستهلّ الحكاية حين قال:

"رجُلٌ مُقِلّ # أخ مُكثِر مُفرِط البخل شديدَ النَّفَجِ"

ونحن نفترض ههنا حياديّةَ الراوي بدليل أنه لم يُسَمِّ أيًّا من الأخوين بالاسم.

واضحٌ أنّ الفقيرَ اقتصرَ وصفُه لنفسه على صفتين اثنتين: "فقير" و "معيل" ووصَفَ أخاه في مقابلهما بصفتين: "غنيّ" و "خفيف الظهر"؛ نقيضٌ مقابلَ نقيض. وإذا كان الأمر كذلك فإنّ الطبيعيَّ والمتوقّع أن يَنهَضَ الغنيُّ خفيفُ الظهرِ لمَدِّ يدِ العونِ لأخيه الفقيرِ المُعيلِ، ولو أنه كان فَعَلَ لانتفتِ المُشكلةُ أصلًا، ولَمَا كان للشكوى مكان، ولَاستراحَ الجاحظُ ونقصَت من حكاياتِ البخلاءِ حكايةٌ. ولكنّ شيئًا من ذلك لم يكُن، وهو ما أكَّده الفقيرُ بهذه الجمل المنفيّة الثلاث:

لا تُعينُني على الزمان،

---

14 البيان والتبيين، ط1 تح: عبد السلام هارون، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة 1948، ج1 ص 79

ولا تواسيني ببعض مالك،

ولا تتفرَّجُ لي عن شيء!

ثلاثةُ جملٍ فيها ثلاثةُ أشياء تبدو في مؤدّاها النهائيّ بمعنًى متقارب وقد نفاها الفقيرُ جميعًا عن أخيه، وبدأ فيها بالمَعنى الأكثرِ تعميمًا وشمولًا وهو الإعانة على "الزمان"، هذا الذي طالما اشتكى الناسُ منه عبرَ اختلافِ عصورهم؛ فالزمانُ مُؤلِم حين يقسو، ويزدادُ إيلامُه حين يَنفردُ بالإنسان، وإنَّ أولَى الناسِ بالمُبادرة في نجدة الإنسانِ وإعانته على نوائب الزمان هم مَن تجمعُهم به صلةُ قرابة، ولكنّ هؤلاء كثيرًا ما يَتخاذلُون. وقديمةٌ جدًّا قصّةُ الشكوى من خِذلان ذوي القربى؛ فقد عبَّر عنها الشاعرُ الجاهليّ قُريطُ بنُ أنيف العنبريّ حين أغار قومٌ من بني شيبان على إبلٍ له فاستنجد بقومه ولم يُنجِدوه، فلجأ إلى بني مازن فأنجدوه. وحينذاك راحَ يسجِّل ذلك بقصيدة شهيرة امتدح فيها بني مازن وسخِرَ فيها من قومه سُخريةً مرّةً قال فيها[15]:

لو كنتُ من مازنٍ لم تَسْتَبح إبلي ... بنو اللّقيطةِ من ذُهْلِ بنِ شَيْبانَا
إذًا لَقامَ بنَصْري مَعْشَرٌ خُشُنٌ ... عندَ الحَفيظةِ إنْ ذُو لُوثةٍ لانَا
قومٌ إذا الشرُّ أبدَى ناجِذَيهِ لهم ... طارُوا إليه زَرافاتٍ وَوُحْدانَا
لا يَسألون أخاهم حين يَنْدُبهم ... في النَائباتِ على ما قال بُرْهانَا
لكنَّ قَوْمي وإنْ كانوا ذَوِي عدَدٍ ... ليسُوا من الشرِّ في شيءٍ وإن هانَا
يَجْزُون من ظُلْم أهلِ الظُّلمِ مَغْفِرَةَ ... ومِن إسَاءَةِ أَهْلِ السُّوءِ إحْسانَا
كأنّ رَبَّك لم يَخْلُقْ لِخَشيتهِ ... سِواهُمُ مِن جميعِ الناسِ إنسانَا

والحقّ أنه لا معنى للأخوة أو القرابة إن لم تَظهَر في الشدائد، وحينها يكون لزامًا أن يَنبري القادرُ على أنّ يخفِّفَ عن أخيه شيئًا من قسوة الزمان.. وفي مثل هذه الحال التي عليها الفقيرُ فإنّ "بعضَ المال" يكون له أثرٌ في التخفيف من قسوة الفاقة. ولكنّ هذا

---

15 المرزوقي، أبو علي: شرح ديوان الحماسة، تح: أحمد أمين وعبدالسلام هارون، دار الجيل بيروت 1991، ج1، ص23-31 .

"البعضَ" ظلّ حبيسًا ولم يخرُج من خزائن البخيل. وهذا هو ما دعا الفقيرَ إلى أن يلومَ أخاه بقوله:

"لا تُعِينُني على الزمان"

وقد تُختَصرُ الإعانةُ على "الزمان" بشيء من ماله يُجريه عليه ليستعينَ به في حياته، ولكنَّ هذا لم يَحصل؛ بل لم تحصل أيةُ مواساة بجزء من هذا المال، فأنتَ أيضًا:

"لا تواسيني ببعضِ مالك". والأصلُ أنّ المواساةَ هي تَطبيبٌ للروح يَحصُل بالقول تخفيفًا عن مَحزونٍ أو مريضٍ وقعت بهما شدّة، بيدَ أنّها هنا تبدو تطبيبًا للفقير ببعض المال، وهذه هي مواساةُ الغنيّ للفقير.. وفي الحقِ فإنّ أيًّا من نوعَي هذه المواساة لم يحصُل هنا، وهذا جريًا على مألوف امتناعِ البخلاءِ عنها، على نحو ما صوَّره الجاحظُ؛ فإنّ ممّا قدَّمَ به لكتابه: أنّ البخلاء والأشحّاء "نَصَبُوا [العداوة] للمُواساةِ وقرنُوها بالتضييع"[16].

وإذًا فلَم تقع المُواساةُ من الغنيّ البخيلِ لأخيه، وكيف تقع منه ولسانُ أخيه الفقير يقول له: أنت "لا تتفرَّج لي عن شيء!"، رضيَ الفقيرُ من أخيه إذن بأيّ شيء عينيّ يُقدّمّه له، ليُفرِّج به من ضيق ذات يده، ولكنّ هذا لم يَحصُل أيضًا.. ولذا رأيتَه يُسارع إلى تقريرِ نتيجةٍ صريحةٍ لا لبس فيها ويُؤكِّدها بجملة مؤكّدات قائلًا له:

"واللهِ ما رأيتُ قطُّ ولا سمعتُ بأبخلَ منك!"

هو إذن يُقسِم على أمرٍ منفيّ على نحوٍ قطعيّ من طريقين: أن يكونَ رأى أو سمع بشخصٍ أبخلَ من أخيه. وفي العبارة حذف للموصوف نابَت عنه صفتُه أفعل التفضيل "أبخل" وتقدير الكلام بشخص أبخل. ولا يخلو أن يرى المرءُ في حياته نماذجَ غريبةً للبشر، ولكنّه غالبًا ما يَسمع عن نماذجَ أغربَ وأعجب.. ومن هنا كان منطقيًّا أن قدِّمت الرؤيةَ بوصفها الأقلّ على ما هو أكثر وهو السماع.

ولا يَخفَى أنّ في هذا الخطابِ المباشَر محاولةً من الفقير لتعريةِ أخيه وجهًا لوجه، كما أنّنا نلمحُ فيه نوعًا من التنفيس عمّا يعتملُ في صدره من ألم ومرارة. وذلك بعد أن خلص إلى قناعة أكّدها بجُملةِ مؤكّداتٍ كما رأينا بأنّ أخاه بلغ المنتهى في البخل.

---

16 البخلاء، ص1

ووصْفٌ كهذا الوصف كان يمكن للبخيل أن يُبْطِلَه بشيء يسيرٍ من العطاء، وإذًا لكان خرَجَ من دائرة البخل أصلا.. ولكنْ هيهات لمثله أن يفعل؛ وهو ما يؤكِّد أنّ الأخَ الفقيرَ كان مُحقًّا في حُكمه وفي وصفِه وهجومه.

وللمرءِ أن يتساءلَ: إذا كان الأمرُ كذلك فلِمَ أتعَبَ الفقيرُ نفسَه مع أخ هو على هذا النحو..؟.. ولِمَ قال ما قاله وهو يُدرك ألّا جدوى من قوله ولا فائدة..؟.. أغلبُ الظنِّ أن هذا الفقير كان مُندفعًا إلى ذلك بسبب أملٍ ضئيل بدَّده طولُ انتظار وترقُّب من تغيُّر في سلوك أخيه، وحين لم يحصل شيء من هذا التغيّر راح يَعتمل في نفس الفقير ومكنونه هذا الاستياء العارم.. وحين لاحت ساعةُ المُكاشفة راح ينفِّسُ عمّا في صدره تجاه أخيه ويفضحُه أمام نفسه وربّما أمامَ الناس أيضًا، لاسيِّما أنه خَبِرَ من أخيه شدّةَ نفجِه، وشخصٌ نفّاجٌ هذا شأنُه يهتزُّ للفضيحة إن حصلت لاسيّما إذا كان مصدرُها أخاه، وحين ذاك سيكون الداعي إلى التصديقِ أقوى، وربّما وجَدَ الشانئون له فرصةً للشماتة به والتشفّي والتندُّر. وربّما بقي في نفس الفقير وهو يُخاطب أخاه البخيلَ بصيصٌ من أمل بأن يكون كلامه سببًا في أن يُغيِّرَ قليلًا من بُخلِ أخيه، فإنّ مقتضى جمله السابقة هو الدعوةُ إلى فعل نقيضها:

لا تُعينني على الزمان	=	**أعِنِّي على الزمان**
ولا تواسيني ببعض مالك	=	**واسِنِي ببعض مالك**
ولا تتفرَّج لى عن شىء	=	**تفرَّجْ لى عن شىء**

ولكنّ الغنيَّ قد يُجادل في نفسِه بأنّه ليس مسؤولًا عن أخيه الفقيرِ أصلًا فضلًا عن أن يكون مسؤولًا عن عياله؛ فمَن اختار أن يكونَ ذا عيال فعليه أن يكونَ مُعيلًا وقادرًا في الأصلِ على حَمل المسؤوليّة، ونحن نجد في كتاب البخلاء نصيحةً لأحدِ أعلامهم يستشهد فيها بحديث النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: "ابدأ بمن تعُول"، ليَردَّ به على من يُريد أن يُغنيَ عيالَ غيرِهِ بإفقار عياله[17] كما يقول.

ولأنّ الغَنيَّ هنا كان خفيفَ الظهرِ فإنّ هذه الحُجّةَ لا تصلُح له ، ولجأ بدلًا منها إلى وسيلةٍ أسهلَ وتجلَّت في أسلوبِ النفي يتهرّبُ به من أداء واجبه؛ فقد نفى عن نفسه

---

17 البخلاء، ص91

صفة "الغِنَى" متخيّلا أنه بذلك ينفيَ عن نفسه تهمةَ "البخل"؛ فلا يُتَصوَّرُ في زعمه وجودُ "بخل" من دون "مَلاءة" أو "استطاعة" تغطِّي النفقات؛ وكأنّ المرءَ، في منطق هذا البخيل وأضرابه، لا يستطيع أن يكونَ كريمًا ما لم يكن فاحشَ الثراء..!.. وهذه مَحْضُ حُجّة واهية لا يَلجأ إليها إلا بخيلٌ لئيم.

وقد نلحظ هنا أنَّ نفيَ التهمة لم يكن على نحو هادئ، بل كان على نحوٍ موازٍ لخطاب الفقير، وفيه ضرْبٌ من الحِدَّة والزجر تكافئ ما كان من حِدّةِ خطابِ الفقير؛ فإذا كان الفقيرُ قد قال لأخيه: "ويحك" وراح ينعته بصفات سالبة، فإنّ أخاه المكثر استعمل الأسلوبَ نفسه.. فكان عندنا:

"وَيحَ" مقابل "وَيحَ"

و

"نفي" مقابل "نفي"

وفي هذا التقابل يكمُن جانبٌ من تأثيرِ القَصّ وجمالياته في هذه الحكاية:

"قال: ويحك! ليس الأمرُ كما تظنُّ، ولا المالُ كما تحسب، ولا أنا كما تقول في البخل ولا في اليسر". وما أسهلَ الإنكارَ أسلوبًا يلجأ البخيلُ إليه ليهرُبَ به من استحقاقاتٍ واجبةٍ عليه. وما أسهلَ أن يَتّهِمَ أخاه الفقيرَ بأنّه إنما يعتمدُ الظنَّ وهو لا يُغني من العلم شيئًا. ومسكينٌ هذا الفقيرُ حقًّا..!.. ومِن أين له أن يَعلَمَ يقينًا بأنّ أخاه يملك من المال كذا وكذا..؟.. وهل يُتَوقّع من بخيلٍ من أصحاب "الجمع والمنع" وشأنُه هذا الشأنُ أن يعترفَ في مثل هذه الحال بحقيقةِ ما يملكه فيُدينَ نفسَه ويجعلَها مَطمَعًا لغيره..؟.. البديهيُّ هو لا، ولكنّه من جهة أخرى نراه وقد اعترفَ من حيث يدري أو لا يدري بوجودِ "مال" لديه، فإنّ في قوله: "ولا المالُ كما تحسب" إقرارًا ضمنيًّا بوجود قَدْرٍ ما من المال، ولكنّه قدْرٌ هو دون ما يَظنّه الفقيرُ، وهو – من وُجهة نظر البخيل– قدْرٌ لا يُخوّل صاحبَه أن يكونَ في عِدادِ أهلِ اليسارِ ومن يُطلَبُ منهم العطاءُ.. وهنا فإنّ البخيلَ يرى "المال" بمفهومه هو لا بمفهوم أخيه، وهو ينظر إلى ما يملكه بمنظار القلّة التي يتطلّع صاحبُها إلى ما هو أكثرُ منها بكثير.. إنه يملِكُ مالًا محدودًا وحسب.. وإذًا فلا يُسمَّى بخيلًا صاحبُه حتى وإنْ لم يُعطِ منه. وهذا منطق في القياس لا يُجيده إلا بخيل

"من أصحاب الجَمعِ والمَنع" ممّن أشار إليهم الجاحظ[18]. ثم إنّ البخيلَ إذا ما أقنع نفسَه هنا بأنه لا يَملك من المالِ ما يكفي سهُلَ عليه أن يَنتقلَ من هذا إلى نفي تُهمَةِ البُخل عن نفسه:

"ولا أنا كما تقولُ في البخلِ ولا في اليُسر"

ينفي صحةَ ادعاء أخيه أن يكونَ بخيلًا.. وكيف يكون بخيلًا مَن ليس من أهل اليُسر..؟.. وإذا لم يكُن في يُسرٍ فهل يقتضي ذلك أنه في عُسر إذن..؟.. أم أنّه شعورُ الفقير نفسِه يردِّده الغنيُّ بصوت مرتفع.. شعورٌ يُحاول الغنيُّ أن ينقلَه إلى أخيه الفقير، فإذا هما في العِوَز سواءٌ، خلا أنّ عِوَزَ الأوّلِ مادّيٌّ وعِوَزَ الآخَرِ نفسيٌّ..

لكنّ البخيلَ لم يكتفِ بهذا القَدْرِ من الدفاع عن نفسه، بل راح يقابل كلَّ ادّعاء بما يُبطله، فإذا كان أخوه ادّعى عليه أنه "غنيّ" وأقسمَ بالله أنه ما رأى ولا سمِعَ "بأبخلَ منه" فإنّ هذا في رأيِ البخيل يَبقَى مُجرّدَ دعوى تحتاجُ في إثباتها إلى دليل، ولمّا لم يكن هناك دليلٌ احتاج البخيلُ في نَفيِه أن يَلجَأ إلى استعمالِ "القسَم" أيضًا الذي يتضمّن ما بعده شيئين اثنين يَستَتبع أحدُهما الآخر: وهما نفيُه المُبَطَّن للغنى، وهو نفيٌ إن صحَّ فإنه يَنفي عنه وعلى نحوٍ تلقائيٍّ التهمةَ الأخرى وهي تُهمةُ البخل كما يعتقد:

"واللهِ لو ملكتُ ألفَ ألفِ درهم، لوهبتُ لك منها خمسَمائةَ ألفِ درهم".

يمينٌ مقابلَ يمينٌ، ونَفيٌ مقابلَ ادعاء.. وكأنّنا بإزاء تطبيقٍ عمليّ لقاعدة فقهيّة شهيرة تقول: "البيّنةُ على المُدَّعي واليمينُ على من أنكر". ولمّا لم يكن في مُستطاعِ الفقيرِ تقديمَ البيِّنة على غِنى أخيه لجأ الغنيُّ إلى اليمينِ يُنكرُ بها ما ادّعاه عليه أخوه من غنى ومن البخل تبعًا لذلك.

ولكي يدلِّلَ البخيلُ على صحّة إنكاره وأنه لا يملك إلا هذا المحدودَ يَعرج بأخيه الفقيرِ إلى عالَمٍ خياليٍّ افتراضيّ لم يكن لهذا المسكين أن يحلُمَ به أصلًا، ولكنّه حلُمٌ يبدو أنه ضمن أمنياتِ الغنيّ يُراوده ليلَ نهار، وإن كان عسيرَ التحقّق بعيدَ المنال، ولأنه كذلك فلا مانع لديه هذه المرّةَ أن يُشرِكَ أخاه فيه.. علّه بهذا أن يُحدِثَ له نوعًا من التخدير

[18] البخلاء، ص 29

بِجعله يحلم بشيء تهفو له في الأصلِ نفوسُ بني آدم وهم الذين خاطبهم البيان الإلهيّ بقوله: "وتُحبّون المالَ حُبًّا جمًّا" [الفجر 20]. واستنادًا إلى هذه المحبّة المتأصّلة راح البخيلُ يُدغدغ رغبةً في الغنى لدى أخيه ربّما كانت ميّتة..

وقد استعمل البخيلُ للتعبير عمّا يريد أسلوبَ الشرط بالأداة "لو" التي تسمَّى حرف امتناع لامتناع، ومن أحوالها أنها تكونُ للتَّعْليق في الماضي، وهو من أكثر استعمالاتها، وتَقْتَضِي لُزومَ امتِنَاع شَرطِها لامتناع جوابها، وإذا دخلت على فعلين ثُبُوتيَّين كانا مَنفِيَّين[19]، كما في العبارة:

"لو ملكتُ ألفَ ألفِ درهم، لوهبتُ"

والمُرادُ: فَما مَلَكتُ ولا وهبتُ، بيد أنَّ الأقرب في توجيه العبارة هنا هو أن تكون "لو" مرَادِفةً لـ "إنْ" الشَّرطية، وحينئذ يكونُ الفعلانِ الماضيان بعدها "ملكتُ" و "وهبتُ" مُؤوّلين بمستقبَل على نحو قوله تعالى: ﴿وليخشَ الذين لو تركوا ذرّيّة ضعافًا خافوا عليهم فليتّقُوا الله﴾[20] وإذا كان الأمرُ للمستقبل فسيبزُغُ حينها سؤالٌ عن كيفيّة امتلاك هذا القدْرِ الضخم من المَال..؟.. أتُراه سيَملِكُه تدرجًّا أم ضربةً واحدة..؟.. وهبْ أنّه ملَكَه تدرّجًا فههنا سؤالٌ افتراضيٌّ عن حال البخيل حين يصل إلى امتلاك الخمسمائة ألف هل سيكون قد وصل إلى حدّ الإشباع، وحينئذ يمكن أن يُعطيَ أخاه الباقي، أم أنه لابد أن يملك الألف ألف أولا لكي يهب الخمسمائة ألف..؟.. وجوابُ هذا كله بالسلب طبعًا؛ لأنّنا نعرفُ من واقع الطبائعِ البشريّة أنّ الإنسانَ غالبًا ما يضعُ لنفسه حاجزًا افتراضيًّا يطمحُ للوصول إليه، ثم ما يلبثُ حين يصل إليه أن يستقلَّه فيَضَعَ حاجزًا افتراضيًّا آخرَ أعلَى من سابقه وأكبر. وهكذا حتى يدركَه الموت ويوارى الثرى.

ولنا أن نُقدِّرَ بأنّ حاجزَ الألفِ ألفِ درهم قد يعدل في أيامنا ما مقداره مئةَ ألف ألف درهم.. أو يزيد.. وطبعًا فليس كلُّ امرئ يَطمَحُ في أن يكونَ عنده هذا القَدْرُ الضخمُ من المال، غير أنَّ من يَملك نصفَه يُمكِنه أن يطمَحَ إلى شيء من هذا.. ولنا أن نقدِّرَ

---

19 انظر: الدقر، عبد الغني: معجم القواعد العربية، ط دار القلم دمشق 1986، ص 391

20 انظر: الدقر: المرجع السابق ، ص 391

بأنَّ الأخ المكثر في هذه النـادرة كان يملك نحوًا من النصف أو الربع؛ فمثل هذا يمكن أن يطمح إلى الألف ألف درهم.

بيد أنّ مِن غير المتوقّع أن يكونَ البخيلُ الغنيُّ استطاع بهذا الوعد المزعوم أن يخدِّر أخاه الفقيرَ، أو أن يجعلَه يحلُم بإمكانيّة أن يُصبحَ فجأةً من الأثرياء.. إنه يدرك كذِبَ أخيه ونفَجَه وادِّعاءَه..؟.. كما أنّنا لا يمكن أن نصدِّقَ البخيلَ أبدًا وهو يخاطب أخاه الفقيرَ قائلًا:

"واللهِ لو ملكتُ ألفَ ألفِ درهم، لوهبتُ لك منها خمسَمائةَ ألف درهم".

ذلك بأنّ مَن يبخَلُ بدفع القليل لا يمكنه أن يدفعَ نصفَ ما سيملكه من رأس مال ضخم كهذا، وقد قال العُتبيّ:

ليس العطاءُ من الكثيرِ سَماحةً حتى تجودَ وما لديكَ قليـلُ[21]

ونحن نعلم من واقع الناس والتجارب أن إيتاء الفقير درهمًا من أصلِ درهمين قد يبدو أيسرَ على النفس من إيتاء ألف درهم من أصل ألفين، وهذا أيسرُ من إيتاء عشرة آلاف من أصل عشرين ألفًا.. وهكذا يتدرج الأمرُ فكلّما زاد رأسُ المالِ ازدادَ تعلُّقُ النفسِ به وبجمعه وكنزه.. فكيف لعاقلٍ إذًا أن يُصدِّقَ بأنَّ بخيلًا من أصحابِ "الجمع والمنع" يمكنه أن يَهَبَ خمسمائةَ ألف درهم هكذا ضربةً واحدة..؟!.. إنّ هذا وعدٌ هو إلى الخيال والكذب أقرب. ثم مَن طلب من البخيل أصلًا أن يَهَبَ نصفَ مالِه أو حتّى عُشرَه، وهو ليس مأمورًا عُرفًا أو شرعًا بأن يدفعَ النصفَ ولا العشر..؟!.. إن الذي يحتاجه منه أخوه هو جُزءٌ ممّا عندَه حتّى لو كان يَسيرًا يسترُ به فقرَه..؟!.. ولكنّ شُّحَّ البخيل منعه ونَّفَجَه دفعه إلى التَهرَّبِ ممّا يَلزَمُه في الحاضر إلى وعْدٍ خُلَّبٍ في مُستقبلٍ يَعرِف يقينًا استحالةَ وقوعِه.. وهو إذًا لا يخسَرُ شيئًا في الإحالة إليه..

وبرغم هذه الاستحالةِ فإنَّ العبارةَ تشي، ضِمنَ ما تشي به، بأنَّ البخيلَ يطمَحُ ويُمنِّي نفسَه بأن يَمتلِكَ هذا القَدْرَ الضخْمَ ذاتَ يوم، وهو من أجل ذلك يجمع ويكتنز

---

21 المبرد، أبو العباس: الفاضل، تح: عبد العزيز الميمني، ط 2 مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة 1995، ص39

ويبخل ولا تنبسط يدُه بأيّ شيء يمكن أن يُعوّقَ وصولَه إلى مَطمحِه.. وهذه بَديهةٌ عند البخلاءِ نَجِدُ تعبيرًا لها عند أحدِ منظِّري البخل، وهو الكنديّ حين يقول: "إنما المالُ لمن حفظه، وإنّما الغنى لمن تمسَّك به. ولحفظ المال بُنيَت الحيطانُ، وغُلّقت الأبوابُ، واتُّخذِت الصناديقُ، وعُمِلت الأقفالُ، ونُقشِت الرشُومُ والخواتيمُ، وتُعُلِّم الحسابُ والكِتاب... وقد علمنا أنّ حفظَ المالِ أشدُّ من جمعه. وهل أُتِيَ الناسُ إلا من أنفسهم، ثم ثقاتهم..؟.. فالمالُ لمن حفظه، والحسرةُ لمن أتلفه. وإنفاقه هو إتلافه"[22]، لا بل إن إعطاء درهم واحد فحسب لا يختلف في حسابات البخيل من "أصحاب الجمع والمنع"[23] عن إعطاء خمسة آلاف درهم فهذا أحدُ شيوخهم يتساءل على سبيل التقرير: « وهل بيوتُ الأموالِ إلا درهمٌ إلى درهم؟ وهل الدرهمُ إلا قيراط إلى جنب قيراط..؟..»[24].. وقد قال أبو محمّد الحزاميّ أحدُ بخلاء الجاحظ: «إنّ من أسبابِ إفلاسِ المَرءِ طمَعَ الناسِ فيه؛ لأنَّهم إذا طمِعُوا فيه احتالوا له الحِيَلَ، ونصبُوا له الشُّرُكَ، وإذا يئسوا منه فقد أمِنَ»[25]. إنّها فلسفةُ البخلاء في الجمع والمنع، وقد أوجزها منذ القديم حاتم الطائيّ بقوله:

يرى البخيلُ سبيلَ المال واحدةً[26]

وهي سبيلٌ تتلخّص في هذا الجمع والاكتناز، وهي ذي فلسفته التي تدُور عليها حياتُه كلُّها، وقد عَبَّر عنها القرآنُ الكريمُ في إشارةٍ فريدة هي في قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ* الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ* يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ..﴾[الهُمَزة1-3] فهاهنا إشارةٌ إلى أنَّ حُبَّ المالِ وجمعَه قد يُوهِم صاحبَه فيرى فيه خلودَه.. وقد قارب بلزاك هذه الحقيقة بقوله: "البخلاء لا يؤمنون بالبعث، إن الحاضرَ هو كلُّ شيء بالنسبة لهم"[27].

---

22 البخلاء ، ص90-91

23 البخلاء، ص29

24 البخلاء، ص31

25 البخلاء، ص61

26 ديوانه، صنعة يحيى بن مدرك الطائي، دراسة وتحقيق: عادل سليمان جمال، مطبعة المدني القاهرة، ص 200

27 كيليطو، عبد الفتاح: الأدب والارتياب، ط 2 دار توبقال الدار البيضاء 2013، ص، 19

ويُمكننا في هذا السياق أن نلحَظَ أنّ الشعورَ بالفقر لم يكن أمرًا خاصًّا بالأخ الفقير دون الغنيّ، بل هو مشترَك بينهما؛ وإذا كان فقر الأول نابعًا من واقع يعيشُه، فإنّ فقرَ الغنيّ نابعٌ من شعور يُسيطر عليه بأنه لا يملك بعدُ من المال ما يُشبِعُ الإحساسَ بالغنى. وكما أنّ الأولَ محتاجٌ فكذلك هو الآخرُ. ولكنّ الفرقَ بين الحَاجتين أنّ حاجةَ الأولِ حاجةُ اضطرار إلى لقمة يَسُدَّ بها جُوعَه وجُوعَ عيالِه، وحاجةَ الآخر حاجةُ ازدياد ونهَم وجمْعٍ واكتناز.. وإذا كانت الحاجةُ الأولى يمكن أن تُسدَّ بشيء من الملبَسِ والمطعم يسيرٍ فإنّ الحاجةَ الأخرى لا يَسُدُّها المالُ الوفيرُ، بل هي مفتوحةٌ ما امتدَّ العمُرُ؛ حاجةٌ كلّما سعَى صاحبُها إلى إشباعها ازدادت تعطُّشًا وشوقًا للمزيد.. لا يُشبِعُها إلا الترابُ.. مصداقًا لقولِ النَّبِيّ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ: "لَوْ أَنَّ ابْنَ آدَمَ أُعْطِيَ وَادِيًا مَلْئًا مِنْ ذَهَبٍ أَحَبَّ إِلَيْهِ ثَانِيًا وَلَوْ أُعْطِيَ ثَانِيًا أَحَبَّ إِلَيْهِ ثَالِثًا وَلَا يَسُدُّ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إِلَّا التُّرَابُ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ تَابَ"[28].

وقد يبدو لنا أنّ ما سبق من حوار جرى في مكان عامّ، لكنْ من دون أن يَسمَعَ به الآخرون.. فهو حوارٌ بين أخوين في شأنٍ خاصٍّ.. ولكنّ الأخَ البخيلَ لم يَشَأ أن يُبقيَه شأنًا خاصًّا حتى النهاية، إن نفَجَهُ دفعَهُ إلى أن يُشرِكَ الآخرين في سماعِ أهمّ عبارةٍ فيه؛ وهي العبارةُ التي تَغيّا بها أن يُسدِّدَ ضَربةً قاضيةً على من يَعُدُّهم خَصومَه ممّن يتربّصون به وبمالِه وبسُمعته؛ هؤلاء الذين يُشِيعُون بُخلَه ويتحدّثون عن غناه؛ والذين أراد لهم أن يكُونوا شُهودًا على مَجْدٍ مُختلَق يُخيّلُ إلى نفسه وإلى الآخرين أنّه تحقّقَ بمُجرَّد أن نطقت به شفتاه، فبدا كمن يَرُدُّ على حقيقةٍ بإيهام، ولكنْ هيهات.

ومن الواضح أنّ في عبارة البخيل هذه دليلًا على ما وُصِفَ به البخيلُ من شدَّة النفج، ولذا فإنّ "النفج" هو ما دعاه إلى أن يستثمر هذا الوعْدَ الخُلّبَ أمام الناس على نحوٍ يُشبه الدعاية لنفسه ولاسيّما أمامَ مَن يجهلون حقيقته.

يا هؤلاء.. فَرَجَلٌ يَهَبُ ضربةً واحدة خمسمائةَ ألفِ درهمٍ يُقال له: بخيل!

---

28 صحيح البخاري، باب ما يتقى من فتنة المال 5958

ويبدو أنّ هذه العبارةَ هي وحدها التي سمعها "الهؤلاء" من كلِّ هذه القصّة.. وهي عبارة تُعَدُّ مثالًا صارخًا للخطابِ الإيهاميِّ المُراوغ الذي يحاول إيهامَ السامع بغير ما هي عليه الحقيقة..

وإذا تأمّلنا في العبارة نجد أنه بدأها بـ "يا هؤلاء" ليسترعيَ أسماعَهم بالنداء، واستعمل اسمَ الإشارةِ "هؤلاء" بدلًا من أشياء أخرى كان يمكن أن ينادَى بها الجمع: من مثل قوله: "يا قوم"، أو "أيها الناس"، أو "يا أيها الملأ". وفي هذا استخفاف بهم ناجم عن عدم معرفةٍ شخصيّة بهم، ثم إنه بهذا النداء أراد أن تصلَ دعايتُه إلى أكبرِ عددٍ ممكن ممن تصادف أن وُجِدُوا في المكان لحظةَ حدوثِ القصّة. ولاشكّ أنّ "الهؤلاء" كلّهم مُتحفّزون بعد أن سمعوا النداء إلى سماعِ ما بعدَه من كلام تَصدَّرته الفاءُ:

"فَرَجَلٌ يَهَبُ ضربةً واحدةً خمسمائةَ ألفِ درهمٍ يُقال له: بخيل!"

وأول ما نلحظه في العبارة أنّ الساردَ أنطَقَ البخيلَ بالوصفِ نفسِه الذي وَصَفَ به أخاه الفقيرَ في مطلع الحكاية مسبوقًا هنا بالفاء الزائدة "فَرَجَلٌ"، وكأنّ البخيلَ لمّا لم يَحظَ بهذا الوصفِ هناك أراد الساردُ أن يَجريَ على لسانِه هنا. وهذا في الحقِّ أسهَمَ في تعزيز خاصيّة الموازاة التي اتسمت بها هذه النادرة. ولكنّ "الرجلَ" هنا هو غيرُه هناك، فقد أفاد تنكيرُ اللفظِ هنا شيئًا من "التعظيم"، وهذا قد يتناسبُ والنفَجَ الذي وُصِفَ به البَخيلُ ابتداء.. وقد أَسنَدَ إليه الفعلَ المضارعَ "يَهَبُ". ومعروفٌ أنّ المضارعَ يُفيدُ الحاضرَ والمستقبل، وفي هذا الاستعمال ضربٌ من الذكاء والدهاء.. وهو يَستهدفُ إيهامَ السامِعِ الذي لا يَعرِف كُنْهَ القصّة بأنّ الهِبَةَ قد وقعت أو هي تقعُ فعلًا، وبقدْرِ ما تُحدِثه العبارةُ من إيهامٍ للسامعين بخلاف الحقيقة يزداد حُنقُ الأخ الفقير على أخيه النفّاج.

ولا يَخفى أنّ استعمالَ الفعلِ المضارع "يهب" أقوى في الدلالة على الكرم، من استعمال "يُعطِي" أو "يمنح".. ثمّ إنّ هذا الواهب لا يَهَبُ على نحو متقطِّع أو مُنجَّم، بل هو يَهَبُ: "ضربةً واحدة". ولعلّ هذا التركيبَ يُذكّرنا بصيغ مشابهة وردت في القرآن الكريم وهي تُفيدُ التهويلَ والتعظيمَ من نحو قولِه تعالى: {إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ} [يس29] وقوله: {فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ} [الصافات19].

وكأنه أراد بهذا الاستعمال هنا أن يُنبِّهَ على الأثر العكسيّ الذي يُمكِن أن تحدِثَه مثلُ هذه الهِبَةُ العظيمة من آثار لا تُحمَد عقباها. ولا شكّ أنّ السامعَ خاليَ الذهن حين يسمع مقدارَ هذه الضربةِ وأنها "خمس مائة ألف درهم" لا يَملك إلا أن يُسلِّم بأنّها ضربةٌ عظيمةٌ حقًّا ولا يستطيعها إلا جوادٌ ليس له في الجُودِ نظير.. ومقتضى ذلك من ثمّ أن يُدهَش أيّما اندهاش ويستنكر أيَّما استنكار أن "يقالَ له: بخيل!".

والبخيل –وهو يَتعجَّب من ظُلم مَن "يفترون" عليه و"يتهمونه" بالبخل– أراد أن يَدفعَ الناسَ إلى أن يتعجّبُوا مثلَه من هذا الذي يَصِفُ من يَهَبُ هذا كلَّه بأنّه بخيل..

وصحيحٌ أنّ هذه النادرةَ تنتهي على هذا النحو لكنّنا لو طبّقنا عليها ما صاغه الناقدُ الفرنسيُّ آلان مونتاندون من توصيفٍ لسماتِ النادرة الأربعةَ وهي: "السهولةُ، والإيجازُ، والتمثيليّةُ، والوقْعُ الدافعُ إلى التفكير"[29] لوجدناه ينطبق عليها؛ فهي سهلةٌ وموجزةٌ وفيها قَدْرٌ من التمثيليّة يَتناسب وحجمها، وهي بعد ذلك منفتحة على العنصر الأخير في التعريف أعني "الوقع الدافع إلى التفكير"؛ فحقًّا تنتهي النادرةُ بانتهاء آخرِ كلمة فيها "بخيل" ولكنّ المتلقي لا يقف عند هذه النهاية، بل تقفز في فكره جملةُ تساؤلات تُحفِّزها النادرةُ من دون أن تُجيبَ عليها: كأن يتساءلَ مثلًا عن موقفِ أو مواقفِ هؤلاء الناس ممن خاطبهم البخيلُ بالجملة الأخيرة منها وما هي استجاباتُهم وردودُ أفعالهم وأقوالهم إزاء ما سمعوا..؟.. كذلك سيتساءل عن موقفِ أخيه من هذه العبارة..؟.. وليس للمتلقي في حالة هذه النادرة إلا أن يعتمد التخمينَ والظنَّ بأنّ استياءَه وغيظَه من بُخل أخيه زاد وتضاعف وأُصيبَ بإحباطٍ ويأسٍ مضاعفَين من ردِّ أخيه ومكره وشدّةِ نفجه. وربما جاز لنا أن نقول في وصف حالِ الفقير إنه يُشبه حالَ ذلك الرجلِ المارِّ في قصَّة الشيخ الخرسانيّ من قصص بخلاء الجاحظ حين وصفَته الحكايةُ في خاتمتها بتلك العبارة التي تصفُ حالةَ الدهَش التي اعترته من منطق الشيخ الخرساني: "قال: فورَدَ

---

29 سعيد جبار: الخبر في السرد العربي؛ الثوابت والمتغيرات، شركة النشر والتوزيع المدارس الدار البيضاء 2004، ص 133 نقلا عن كتاب , mountandon: Les formes breves ed. Hachette, paris,1992, p.107

على الرجل شيء لم يكن في حسابه"[30]. أجل فههنا أيضًا سيبدو الأخُ الفقير وقد "ورد عليه شيءٌ لم يكن في حسابِه"، ولعلّه ما كان يُقدِّر بأنّ أخاه البخيلَ النفّاجَ هو أيضًا من الدهاء والمُكر بحيث يستطيعُ أن يَخرج من المواجهة رابحًا ربحًا نفسيًّا على الأقلّ. وذلك هو شأنُ النفّاجين من البخلاء.

وقد قدّم أبو عثمان في كتابه البخلاء عدّة صور للبخيل النفّاج؛ فممّا يرويه في هذا قصتان تتقاطعان وهذه القصة من بعض وجوههما؛ وأولى القصّتين رواها عمّن سمّاه أحمد بن الخاركيّ وقال في وصفه: "وكان بخيلًا، وكان نفّاجًا. وهذا أغيظُ ما يكون"[31]. يقول الجاحظ: "وبلغ من نَفَجِه مع ذلك ما خبَّرني به إبراهيمُ بن هانئ، قال: كنتُ عنده يومًا إذ مرَّ به بعضُ الباعة، فصاح: "الخوخ الخوخ". فقلتُ: "وقد جاء الخوخُ بعدُ؟" قال: "نعم، قد جاء، وقد أكثَرْنا منه". فدعانيَ الغَيظُ عليه إلى أن دعوتُ البيَّاعَ، وأقبلتُ على ابن الخاركيّ، فقلت: "ويحك نحن لم نسمع به بعدُ، وأنت قد أكثرتَ منه! وقد تَعلَمُ أنَّ أصحابنا أترفُ منك!" ثم أقبلتُ على البيّاع فقلت: "كيف تبيعُ الخوخَ؟" فقال: "ستةٌ بدرهم"؛ قلت: "أنتَ ممن يشتري ستَّ خَوْخاتٍ بدرهم، وأنت تعلم أنه يُباع بعد أيام مائتين بدرهم؟ ثم تقول: وقد أكثرنا منه، وهذا يقول: ستة بدرهم؟" قال: "وأيّ شيء أرخَصُ من ستّةِ أشياءٍ بشَيء؟"[32].

وأمّا القصة الأخرى فرواها عن المعتزليّ الشهير أبو هذيل العلّاف وقد وصفه أيضًا بالنّفَجِ قال: "وأقبلَ مرةً على محمدِ بنِ الجهم، وأنا وأصحابنا عنده، فقال: "إنّي رجلٌ مُنخَرِقُ الكفَّين، لا أُلِيقُ شيئًا. ويدي هذه صَناعٌ في الكسب، ولكنّها في الإنفاق خرقاء! كم تظنُّ من مائة ألفِ درهم قسمتُها على الإخوان في مجلس؟ أبو عثمان يعلَمُ ذلك! أسألك بالله يا أبا عثمان هل تعلمُ ذلك؟ فقلت: "يا أبا هذيل ما نشكُّ فيما تقولُ" – فلم يَرضَ بإحضاري هذا الكلامَ حتى استشهدني، ولم يرضَ باستشهادي حتى استحلفني"[33].

---

30 البخلاء، ص 25- 26

31 ص125

32 البخلاء، ص126-127

33 البخلاء، ص135-136

ولنا بعد ذلك أن نلحظَ ما في نادرةِ ابن حسان، على وجازتها الشديدة، من براعة في "التوازي Parallelism" سواء ما تعلّق بتوزيع ما قيل في شخصيتَي النادرة من وصف أو ما أُجري على لسانهما من كلام وحوار، فقد جاء على شكلِ هندسة تكاد تكون تناظريّة، على صعيد كل من الوصف والحوار، وهو ما يتضح من خلال هذا الجدول:

الشخصيّة الأولى (الأخ الفقير)	الشخصية الثانية (الأخ الغنيّ)
رجل مُقِلٌّ	أخٌ مكثر وكان مفرطَ البخل، شديدَ النَّفَجِ
ويحك	ويحك
أنا فقير معيل	وأنت غنيّ خفيف الظهر
لا تُعِينُني على الزمان، و لا تواسيني ببعضِ مالِك، ولا تتفرَّج لي عن شيء	ليس الأمر كما تظنّ، ولا المالُ كما تحسب، ولا أنا كما تقول في البخل ولا في اليسر
والله ما رأيت قطُّ ولا سمعتُ بأبخلَ منك	والله لو ملكتُ ألفَ ألفِ درهم، لوهبت لك منها خمسَمائةَ ألف درهم

وواضح أنّ وراءَ هذا التناظر خبرةً عميقةً في صَنعةِ النوادرِ وإدارةِ الحِجاجِ والجدلِ وتوظيفٍ للبلاغة مَهَرَ فيها الجاحظُ جميعًا، وكان من روّادها ومنظِّريها، وظهرت في نُصوصه السرديّة على تباينٍ في مستوى هذا الظهور.

وبالجملة فإنّ هذه النادرة على وجازتها حوَت في داخلها كلَّ مُكوِّنات النصّ القصصيّ من استهلالٍ وسردٍ ووصفٍ وحوارٍ وقفلة، فكانت بذلك نصًّا سرديًّا مُكتمِلَ الأركانِ مُؤدِّيًا وظائفَه على أكملِ وجهٍ، شأنُها في ذلك شأنُ عامّةِ ما كتبَه الجاحظُ من حكايات ونوادر.